الفصل الثانى

لمحة تاريخية

اتخذت حركة التعاون صورة عملية على أشكال شتى تبعاً للبيئة التى نشأت فيها ولمرافق القائمين بتلك الحركة وعوائدهم واستعدادهم وتلك الأشكال تنطوى تحت الأنواع الرئيسية الآتية :

١ — التعاون فى الاستهلاك(١) وقد يسمى بالتعاون فى التوزيع أو التوريد(٢) وهو يرمى الى احلال المستهلك محل صغار البائعين وذلك باشتراك المتعاونين فى شراء السلع التى يحتاجون اليها جملة ثم بيعها لأفرادهم كل حسب حاجته بالأسعار الاعتيادية أو بما يزيد عنها قليلاً مع تخصيص قسم من الربح — لا يتجاوز خمسة فى المائة عادة بالحصص وتوزيع الباقي على المشترين كل بنسبة قيمة ما اشتراه والنظرية التى قام عليها هذا التعاون هى أن الربح مستفاد من المستهلكين فلذلك يجب أن يعود اليهم فى النهاية كما يجب أن يكون فى يدهم رأس المال والادارة ولذلك فالشركات القائمة على هذا المبدأ قلما تدفع لمستخدميها فوق أجورهم نصيباً فى الربح على أنه ليس هناك ما يمنع أولئك المستخدمين من شراء حصصها كمستهلكين

٢ — التعاون فى الانتاج(٣) وهو يرمى الى استفادة عمال المصانع ونحوها من الأرباح الناتجة من عملهم وذلك بأن يشتركوا فى الاكتتاب برأس المال اللازم للعمل ويتقاضوا فائدة معينة على مالهم المكتتب فضلاً عن أجورهم التى يتناولونها كالعادة كما يتناول مدير المعمل راتباً معتدلاً فاذا زاد الربح على كل ذلك وزع الفائض على جميع العمال بنسبة رواتبهم وللقائلين بهذا المذهب نزعات منها ان مبدأ اشراك العمال فى

---

(١) *Co-operative Consumption*

(٢) *Co-operative supply or Distributive Co-operation*

(٣) *Co-operative Production*

الربح يجب أن يسرى على شركات التعاون فى الاستهلاك وذلك بأن يدفع لهؤلاء العمال نصيب من الربح يحبس لحسابهم الى أن يتكوّن منه ما يقتنون به حصة فى رأس المال (١)

٣ — التعاون فى الاقتراض (٢) وهو يرمى الى استخدام الجهد المشترك بطريق التضامن لتدبير المال الذى يحتاج اليه فقراء الناس من الفلاحين والعمال وصغار التجار ونحوهم بالفائدة المعتدلة حيث لا سبيل للواحد منهم الى الاقتراض على حدته وتعرف شركات التعاون التى تنشأ لهذا الغرض فى القرى بالبنوك أو الصناديق القروية (٣) وهى التى تمد الفلاّحين بالمال أما التى تنشأ فى المدن لفائدة العمال وصغار التجار ومن جرى مجراهم فتسمى عادة ببنوك الشعب (٤)

٤ — التعاون فى الزراعة (٥) وهو يطلق على تسخير الجهد المشترك فى سبيل استغلال الأرض وما يرتبط بها استغلالاً يعود على الفلاح بأقصى ما يستطاع من الربح ولذلك لا يقف فيه الاجتهاد عند حدّ بل يتناول شراء السماد والبذور والآلات الزراعية ونحوها وبيع الحاصلات واعدادها للأسواق وتحويل المواد الأولية منها كاستخراج الزبدة والجبن من اللبن وتقديد اللحوم ، والتأمين الزراعى وتربية الحيوانات والطيور وتحسين نسلها والقيام بأعمال الرى والصرف الخ . فالتعاون الزراعى اذاً يشمل طرفاً يذكر من التعاون فى الاستهلاك — لانه يتناول شراء حاجات الزراعة جملة وبيعها للمتعاونين كل بحسب طلبه — كما ينطوى تحته أيضاً على نوع ما مبدأ تعاون الانتاج وأن اختلف تطبيق القواعد التفصيلية وبيان ذلك ان تعاون الانتاج يرمى الى استفادة العامل مما يعمله فائدة تتعدى اجرته الى الاشتراك فى الربح كما ان من أغراض التعاون الزراعى ان يستفيد الفلاح عند الاستطاعة من المواد الأولية التى ينتجها فائدة لا تقتصر على

---

(١) كثيراً ما يطلق التعاون الصناعى *Industrial Co-operation* على نوعي التعاون المتقدم ذكرهما معاً

(٢) *Co-operative Credit*

(٣) *Caisses Rurales, Rural Banks*

(٤) *People's Banks*

(٥) *Co-operation in Agriculture*

قيمة تلك المواد وهى على حالتها الأصلية بل تتعداها الى الربح الذي ينتج من تحويلها الى الشكل الذى تباع به بيعاً رابحاً كما فى استخراج الزبدة من اللبن كما تقدم . وقولنا « عند الاستطاعة » يراد بهِ أن التعاون لا يجب أن يدعو الفلاح الى التعرض للصناعة إلاَّ اذا كانت مرتبطة ارتباطاً كليًّا بالفلاحة وكانت مما يستطيع الفلاح أن يحسن القيام بهِ وكان ربحها خيراً من الربح الناتج من بيع المادة الأولية على حالها

وبديهى أن التعاون فى الاقتراض وان كان ضرباً من التعاون قائماً بذاته إلاَّ أنهُ من أركان التعاون الزراعى الأولى اذ لا قيام للزراعة إلاّ بتدبير المال لصغار الفلاحين ولذلك فكثيراً ما يجمع البنك القروى بين مهمة إقراض الأعضاء والقيام بالأعمال التعاونية الزراعية الأخرى عملاً بتعاليم رايفيزن كما سيجئ والاّ فقد ينشأ البنك القروى والى جانبه شركة واحدة أو اكثر من شركات التعاون الزراعية التى تعتمد عليهِ فى الحصول على المال الذى يلزم لقضاء أعمالها(١)

أما النشأة الأولى للحركة التعاونيـة فى العالم فمهدها بريطانيا العظمى وأبو الحركة التعاونية فى انجلترا روبرت أوين « *Robert Owen* »(٢) على انك لا تكاد تتصفح تاريخ أمة من الأمم فى أى زمن كان إلاّ وجدت بهِ أثراً لمبدأ التعاون ولكن نظرية التعاون لم تؤسس حتى تهيأ لاوين فى انجلترا ولفورييـه(٣) الذى عاصره فى فرنسا ان ينشرا تعاليمهما على الملأ وهى على اختلافها في كثير من الوجوه تتفق فى المبدأ

---

(١) وبناء عليه سترد عبارة « التعاون فى الزراعة » فى هذا الكتاب على اطلاقها شاملة للاعمال الزراعية المحضة وللتسليف الزراعى

(٢) *Robert Owen* مؤسس الاشتراكية الانجليزية وزعيم النهضة التعاونية الأولى فى انجلترا ولد فى سنة ١٧٧١ وتوفى فى سنة ١٨٥٨ ولم يحصل من العلم فى صغره الاعلى النذر اليسير ولكنه كان زكي الفؤاد كبير العقل تولى ادارة معمل غزل فى مانشستر وهو فى سن التاسعة عشرة ثم أثرى وأصبح له معمل خاص فيـه المئات من العمال . كان يجاهر بكثير من المبادئ المتطرفة التى لم تحققها الأيام ولكن له فضل السبق فى انشاء مدارس الأطفال فى انجلترا وانقاص ساعات العمل فى المصانع والتشريع الخاص باصلاح حال العمال والدعوة الى الفكرة التعاونية

(٣) *Charles Fourier* فيلسوف اشتراكى فرنساوى ولد سنة ١٧٧٢ وتوفى سنة ١٨٣٧ قام يدعو الى نقض النظام الاجتماعى من أساسه واستبداله بنظام خيالى ولكنه على تطرفه ذهب الى بعض المبادئ الصائبة فى شأن التعاون

على أن لتعاليم أوين بلا جدال المنزلة الأولى والأثر الفعال فى تكييف الحركة التعاونية

وقد عاصر أوين بدء انتشار المصانع الكبرى التى تدار بالآلات وحاولها محل المصانع اليدوية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر

بدأ بائعاً صغيراً ثم نجحت أعماله حتى أصبح وله من العمال العدد الكثير فرأى بالاختبار ان من خير الوسائل لإبقاء الثروة العناية بالعمال وعدم الحمل عليهم بالعمل الشاق قياساً على ان الآلات لا تحسن عملها الاّ اذا وجدت من يعنى بها ويقوم على تعهدها من وقت لآخر ورأى أوين أيضاً ان العناية بالعمال لا يقتصر نفعها على صاحب العمل بل يشمل الأمة بأسرها وكان الرأى السائد فى ذاك العهد مبدأ الفلسفة الذاتية وهو القائل بأن خير المجموع يكون على أتم ما ينبغى اذا سعى كل فرد من أفراد هذا المجموع على حدته وراء الفائدة الذاتية لشخصه أو عائلته دون سواهم أما أوين فقد تعرض لدحض هذا الرأى ونشر على الملأ رأيه القائل بأن الجماعة لا تستفيد الاّ اذا وضع كل فرد نصب عينيه إفادتها جملة ولذلك سمى هو واتباعه بالاشتراكيين

ولبث ينشر مبادئه هذه ويدرسها لعمال المغزل الذى كان يديره فى نيولانارك *New Lanark* منذ سنة ١٧٩٩ وقد كتب يقول « سرنا فى عملنا ٢٩ سنة لم نلجأ فى خلالها لقاض أو محام ولم يحكم فيها بعقاب ولم تقم بين العمال قط منازعات باعثها الدين أو الخمر ولقد خفضنا ساعات العمل وأحسنا تأديب الغلمان منذ نعومة أظفارهم وأصلحنا حالة العمال أيما اصلاح وخفضنا وطأة عملهم اليومى ونتج لنا بعد كل ذلك ربح يربو على ثلثمائة ألف جنيه عدا الفائدة التى حسبناها على رأس المال »[1] وبالجملة فقد نجح فى تطبيق مذهبه واخراجه الى حيز الفعل نجاحاً حدا بأعاظم رجال العصر الى التوجه لزيارة نيولانارك لمشاهدة ما وصلت اليه حالة أهليها فأصبحت أشبه شىء بمعرض عام

وكان من أهم الأغراض التى يرمى اليها انشاء ما سمى فى الانجليزية *communities* وهى جماعات صناعية زراعية تقوم بذاتها بحيث تفى وحدها بحاجة أعضائها وتكون

(١) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الحادية عشرة
Encyclopaedia Britannica, 11th edition

فيها الأرض وغيرها من منتجات الثروة ملكاً مشاعاً لأفرادها والتربية والتهذيب فيها على مبادئ أوين

على أنهُ قد فشل فى الوصول الى هذا الغرض ولكن تلك الدعوة كانت سبباً فى ظهور مبدأ التعاون بصورة عملية لأن فكرة الجماعات المستقلة استهوت قلوب العمال فكنت تجدهم يجتمعون زرافات فى انحاء مختلفة بقصد تأليف تلك الجماعات وكلما تنحى الأغنياء أو تنحت الحكومة عن مدهم بالمعونة أو المال جمعوا المال بالاكتتاب بلا معين وتوسلوا الى انشاء تلك الجماعات المستقلة بانشاء شركات تعاونية صغيرة قائمة على المبدأ الديمقراطى مبدأ التساوى فى الحقوق والواجبات وقد لبثت تلك الشركات بضع سنوات نامية ناجحة فكانت تبتاع حاجاتها جملة ثم توزعها على الأعضاء بالثمن المعتاد وما ينتج من الربح يحبس حتى يتكوَّن لهم منه رأس مال فاذا توفر لهم ذلك كلفوا البعض منهم بصنع الأحذية مثلاً والبعض الآخر بصنع الملابس وهلم جرًّا حتى ينمو رأس مالهم من وراء ذلك فيبتاعون أرضاً ليؤسسوا فيها الجماعة التى سبق ذكرها وبلغ مجموع الشركات التعاونية التى من هذا القبيل بين سنى ١٨٢٨ و ١٨٣٤ ما بين ٤٠٠ و ٥٠٠ ولكن الحركة أخفقت بعد ذلك لفتور اهتمام الناس بالأمر

وفى سنة ١٨٤٤ اجتمع ثمانية وعشرون رجلاً من الفقراء من طبقة غزالى الصوف ومن شاكلهم فى مدينة روتشديل « *Rochdale* » فى مقاطعة لانكشير « *Lancashire* » بانجلترا ولبث كل منهم يدفع بضعة شلنات قلائل حتى جمعوا ٢٨ جنيهاً ثم أنشأوا فى ٢١ ديسمبر من تلك السنة حانوتاً فى تلك المدينة وهذا الحانوت الصغير هو مهد التعاون فى انجلترا بل هو منبت الحركة التعاونية فى معظم البلاد وكانت تلك الشركة الصغيرة ترمى الى الأغراض التعاونية الشائعة فى ذلك الوقت وعلى الأخص التوصل فى نهاية الأمر الى انشاء جماعة مستقلة على أنها لم تفلح فى هذا الغرض الأخير ولكنها نجحت نجاحاً باهراً فى اصلاح حال الملايين من العملة اصلاحاً عظيماً فأمكنتهم من ابتياع حاجتهم من الغذاء النقى من الشوائب بالثمن الرخيص وحالت بينهم وبين الاستدانة وعلمتهم أساليب الاقتصاد وظلت الشركة

تتطور فلم تقف عند حد الاتجار « بالقطاعى » بل تعدته الى الاتجار بالجملة ثم الى الصناعة و بناء الدور واحرازها وتملك السفن وفتح المصارف ولعل أفضل ما عاد به هذا التعاون على الأعضاء من المزايا انهُ مكنهم من التعلم وأحسن تأديبهم وجعل لكل منهم مثلاً أعلى يضعه على الدوام نصب عينيه

بدأ العمل فى شركة روتشديل «*The Rochdale Equitable Pioneers*» صغيراً وكان الأعضاء يتناوبون العمل فى الحانوت بلا أجر وظلت فى رقى مستمر حتى أصبحت شركة عدد أعضائها ١٤ ألفاً وأصبحت تتجر فى ثلثمائة ألف جنيه وتملك حوانيت ومعامل ومكتبة وقاعة للمطالعة وتخصص جزءاً كبيراً من ربحها العظيم بالتعليم و بالأعمال الخيرية

رب سائل يقول ما السر فى ذلك الاخفاق وهذا النجاح وما الفرق بين ذاك التعاون وهذا والجواب ان معظمه راجع على الأرجح الى كيفية التصرف فى الربح فان الحوانيت التعاونية الأولى كانت توزع الربح بنسبة ما يملكه كل عضو من رأس المال أو كانت توزعه على الأعضاء بالتساوى ولكن شركة روتشديل كانت تخصص خمسة فى المائة برأس المال المكوَّن من الحصص وما يبقى بعد ذلك كانت تخصصهُ بالأعضاء بنسبة معاملاتهم مع الشركة لكنها لم تكن توزعه عليهم بل تقيده لحساب كل منهم حتى يتكوَّن لكل عضو خمسة جنيهات تضم لرأس المال باسمه فكان ذلك يستميل الأعضاء الى معاملة الشركة والى حمل أصدقائهم وذويهم على التعامل معها

ولم يقف أمر شركة روتشديل عند حدّ رقيها ذلك الرقى العظيم فانها أصبحت مثلاً يقتدى بهِ فكنت ترى الناس تنشىء الشركات الجديدة على مثال «روتشديل» والحوانيت القديمة تنقلب الى مخازن تعاونية وهلم جراً حتى أصبحت شركات روتشديل تعدُّ الآن بالألوف فى الجزائر البريطانية و يعد أعضاؤها بالملايين ومجموع رؤوس أموالها بعشرات الملايين من الجنيهات

وادارة هذه الشركات على أساس ديمقراطى صرف فلكل عضو سواء كان رجلاً أو امرأة صوت واحد فقط

وأعضاء لجان الادارة والمديرون هم فى الغالب من طبقة العمال الراقية أو أرقى من ذلك بقليل وتتباين هذه الحوانيت التعاونية فى الأهميـة والكبر تبايناً عظيماً فمنها حوانيت القرى وهى صغيرة ضئيلة ومنها المخازن العظيمة الشأن واكبرها شركة ليدز *Leeds* التعاونية ففيها خمسون الف عضو ومبيعاتها فى العام تربو على مليون ونصف من الجنيهات ونظامها ونظام فروعها مما يدعو الى الدهشة بالنسبة لاتقانه وإحكامه وهى على مثال روتشديل

يقبل عضواً فى هذه الشركات كل من دفع شلناً واحداً كرسم دخول ووقع على مستند يتعهد فيهِ بأن يشترك فى حصة قيمتها جنيه واحـد يخصم من الربح واكثر هذه الشركات تخول للأعضاء حق سحب رأس المال بقيمته الاسمية ويقيد كل ما يشتريه العضو من الشركة إما فى سجل أو بواسطة علامات معدنية ويوزع الربح كل ثلاثة شهور ولا يجوز أن يزيد الربح على خمسة فى المائة فى السنة من قيمة الحصص وكثيراً ما يكون أقل من ذلك وما يبقى بعد ذلك يوزع على الأعضاء بنسبة قيمة ما اشتراه كل منهم والشركات التى تبيح التعامل مع غير الأعضاء تعطيهم نصف ما يعطاه العضو وبعض الشركات تصرف الى مستخدميها مقداراً معيناً من الربح فتجد من ذلك أن الأعضاء يبتاعون حاجتهم بالثمن الذى اشتريت بهِ تقريباً ويبلغ متوسط ما يوزع على الأعضاء بنسبة المعاملة ١٢½ فى المائة وقد يبلغ اكثر من ذلك فى الشركات الناجحة على أن المتوسط اخذ فى النزول عن هـذا المقدار والغالب فى الشركات ذات الربح الكبير أنها تبيع بضائعها بثمن أعلى من الثمن الذى تباع بهِ هذه البضائع فى الحوانيت المجاورة لتصبح الشركات بمثابة صناديق توفير للأعضاء اذ كلما ابتاع العضو بضاعة بعشرة قروش مثلاً وكان الثمن الحقيقى للبضاعة دون ذلك بقرش أو بنصف قرش حجز ذلك القدر له فينقده ربحاً

وكثيراً ما تقوم المخازن التعاونية فضلاً عن الاتجار بصنع الخبز والملابس والأحذية وغيرها وهى تنفق أموالاً طائلة فى بناء منازل فى القرى أو الضواحى لتأجيرها للأعضاء أو بيعها لهم وفى تسليف الأعضاء ما يشترون بهِ منازل لسكناهم

وهذه المخازن التعاونية قد لا يكون بينها وبين الحوانيت الاعتيادية فى الظاهر فرق لكن الواقع أن بين النوعين بوناً شاسعاً وأول وجوه التمييز ان الحوانيت التعاونية لم تنشأ بقصد الربح بل بقصد الحصول على المصنوعات الجيدة وبيعها بثمن رخيص . ثانيها أن الحوانيت التعاونية تنمى ملكة الوفر والاقتصاد لذلك حسنت حالة العمال تحسيناً هائلاً ودربت المشتغلين بها على الطرق التجارية وعلمتهم الحكم الذاتى وهى فوق ذلك ترمى الى غاية اقتصادية اجتماعية كبرى وهى تعديل نظام توزيع الثروة والتقريب بين ثروات الأفراد بعضها من بعض واستبدال مبدأ المزاحمة السائد الآن بنظام آخر يكون تحت اشراف الهيئة ولمنفعتها ثم توزيع الثروة الناتجة على الأعضاء بحسب ما يوحى بهِ العقل السليم والمساواة . ولما كانت تلك اغراض القائمين بهذه الحوانيت التعاونية فانهم بطبيعة الحال يقبلون المبدأ القائل بدفع أُجور عادلة للعمال واصلاح شؤونهم وتحسين احوال معيشتهم ومن مبادئهم كذلك الامتناع عن ابتياع السلع التى تصنع فى مصانع تسوء فيها حالة العمال

ومن تلك الشركات التعاونية ما تفرد لوجوه التعليم والتهذيب جانباً صغيراً من ربحها ومن هذه الوجوه اعداد الاجتماعات الأدبية ودور الكتب والمطالعة وفتح أقسام خاصة للتدريس وغير ذلك وكثيراً ما تهب هذه الشركات اعانات للمعاهد ذات الأغراض التى تتفق مع مبادئها ولكثير من اعضاء هذه الشركات حيثية خاصة فى المجالس المحلية وكثيراً ما يرشحون لعضوية المجالس النيابية

على ان هذه الشركات لا تخلو من المعائب فان جانباً كبيراً من اعضائها لا ينخرطون فى سلك العضوية الاَّ بدافع من حب المنفعة الشخصية ويقال ان عدد هؤلاء آخذ فى الازدياد . لكن ادارة الشؤون فى هذه الشركات كلها كانت ولم تزل منوطة بافراد من ذوى الأفكار الصائبة الذين يعتقدون ان المخازن التعاونية ان هى الاَّ وسيلة يتوصل بها فيما بعد الى الانتاج التعاونى

وقد انتشرت شركات التعاون فى الاستهلاك فى انجلترا انتشاراً عظيماً جداً كما تقدم . اما شركات التعاون فى الانتاج فأقل من تلك عدداً وشأناً ولكنها احرزت نصيباً يذكر من النجاح

ولنقابات شركات التعاون فى انجلترا — كما فى غيرها من البلاد — اثر جليل فى الحركة الاصلاحية . خذ لذلك مثلاً نقابة شركات التعاون المسماة « *The cooperative Union Ltd.* » بانجلترا فهى شركة شاملة لجمعيات بريطانيا العظمى برمتها كما تشمل كثيراً من الشركات فى ايرلاندا وعملها الدعوة والارشاد ودخلها السنوى عشرة آلاف جنيه تدفعه الشركات التى تتألف منها وقد نيط بها الدفاع عن مصالح الشركات امام القضاء وفى الدوائر البرلمانية ثم انها تقوم بأعمال تعليمية هامة جداً من مثل التدريس والمحاضرات واعداد الجوائز واعداد مؤتمرات محلية للمناقشة والجدل وتدعو كل عام مؤتمراً عاماً للتعاون وتنشئ معرضاً سنوياً — فى احدى المدن الكبرى تعرض فيهِ مصنوعات المحال التعاونية . وفى انجلترا أيضاً شركة للتعاون بالجملة تدعى "*Wholesale Society*" « *The Cooperative* » تضم تحت لوائها ١١٩٣ مخزناً تعاونياً عدد أعضائها ٢٣٣٦٤٦٠ عضواً وقد انشئت سنة ١٨٦٣ و بدأت صغيرة ولكنها الآن اصبحت وعدد العمال بها يزيد على خمسة وعشرين ألفاً وتبلغ قيمة مبيعاتها السنوية خمسة وثلاثين مليون جنيه والأرباح السنوية التى توزعها ٦٥٢٠٠٠ جنيه والشركة تصنع فى معاملها من المصنوعات ما قيمته اربعة ملايين ونصف مليون من الجنيهات سنوياً ولها معامل ومخازن واراض كثيرة فى أنحاء عدة وهى تتجر بالواردات تجارة واسعة ولها كثير من السفن التى تجلب بضائعها وهى بمثابة المصرف المالى للشركات المكونة لها فتستخدم ما يكون زائداً لدى تلك الشركات من رؤوس الأموال

ذلك تاريخ نشأة التعاون وتأصل مبادئه فى انجلترا قبل سواها . أما بقية انحاء أوروبا المتمدينة فقد انتقلت اليها تلك الحركة ولم تختلف عما هى عليه فى انجلترا الاّ فى أنها أقل علاقة بطبقة العمال فلا تصطبغ بصبغة مراميهم الاجتماعية والاقتصادية . وفى فرنسا وسويسرا وايطاليا وألمانيا وغيرها من البلدان عدد عظيم من شركات التعاون فى التوزيع على مثال شركات روتشديل وان كانت قد أخذت فى ادخال بعض التعديل على قواعدها وكذلك يبذل أهل الولايات المتحدة جهداً متوالياً فى تعميم التعاون على مثال تلك الشركات

وكما كان لانجلترا فضل السبق فى اخراج مبادئ التعاون من حيز النظريات الى الفعل كذلك كان للقارة الأوروبية وعلى الأخص لألمانيا القدح المعلى فى تطبيق فكرة التعاون على اعمال البنوك

كانت نشأة التعاون فى الاقتراض على يد رجلين من المصلحين الاجتماعيين فى المانيا وهما رايفيزن «*Friedrich Raiffeisen*» الذى انشأ فى سنة ١٨٤٩ اول بنك للتسليف على مبدأ التعاون فى مقاطعة ووستروولد وشلزديلتش «*Schulze-Delitzsch*» الذى أسس فى بقعة اخرى من المانيا نائية عن الأولى شركة تسليف تعاونية على قاعدة تباين قواعد الأولى كل التباين فألمانيا هى اذن مهد التعاون فى الاقتراض ومنها انتقل على طريقتيه الى بقية البلاد المتمدينة

وُلد رايفيزن فى سنة ١٨١٨ فى هام «*Hamm*» بأقليم وستفاليا «*Westphalia*» وكان فى صباه على نية الاندماج فى سلك الجندية ولكن قصر بصره حال دون هذه الأمنية فعين فى سنة ١٨٤٥ حاكماً ادارياً لأقليم صغير فى مقاطعة وستروولد بألمانيا وقد حلّ بذلك الأقليم ضنك شديد أيام عمت المجاعة البلاد في سنتى ١٨٤٦ و١٨٤٧ وكان سكان تلك المقاطعة مرهقين تحت نير الدين الذى أثقل كواهلهم وقد تملك المرابون رقابهم واوقعوا بهم من الذل والضيق الشديد ما رق له قلب رايفيزن فخطر له في سنة ١٨٤٨ ان ينشئ في قرية فلامرسفيلد «*Flammersfeld*» مخبزاً تعاونياً بدريهمات عانى فى جمعها مشقة تذكر وقد نجح ذلك المخبز نجاحاً عظيماً فأمكن الأهالى من شراء خبزهم بنصف الأثمان التى كانت جارية اذ ذاك فحمله هذا النجاح على انشاء شركة تعاونية لشراء الماشية وقد اصابت من التوفيق مثل ما اصاب المخبز ولا تزال المنشآت التعاونية من هذين النوعين من اكثر شركات التعاون شيوعاً فى قارة أوروبا الى الآن

وفى سنة ١٨٤٩ دبّر رايفيزن ٣٠٠ جنيه انشأ بها اول بنك قروى للتسليف على مبدأ التعاون فى القرية المتقدم ذكرها وعرض على القرويين الانضمام لذلك البنك والخضوع لقانونه الذى يقضى بتضامن الأعضاء جميعاً للحصول على المال بتلك الضمانة

المشتركة وتوزيعه على كل منهم كل بحسب حاجته بفائدة لا تزيد الاّ قليلاً عن الفائدة التى اقترضوا بها فأقبلوا على ذلك البنك ولكن نجاحه كان بطيئاً فلم ينشأ غيره حتى مرت خمس سنوات ولم ينشأ ثالث حتى مرت ثمان سنوات ولم تأخذ هذه الشركات فى الانتشار على نحو مرضى حتى سنة ١٨٨٠ أما الآن فانها تعد بعشرات الألوف وقد انتشرت انتشاراً كبيراً فى معظم بقاع الأرض . وتوفى رايفيزن فى سنة ١٨٨٨ بعد أن ذاق ثمار شجرة الاصلاح التى غرسها فى بلاده وأينعت فروعها حتى امتدت منها الى مشارق الأرض ومغاربها

ومما تفخر به شركات رايفيزن أنه لم يحصل بعد أن عضواً من أعضائها أو دائناً من دائنيها خسر قرشاً واحداً وهى دعوى لا تبعد عن الصحة لأن الثقة المالية فى هذه الشركات بلغت مبلغاً عظيماً لما سيأتى شرحه من الأسباب فى موضعه

أما فرنس هرمان شولز فكان قاضياً فى بلدته ديلتش فى أواسط بروسيا الجنوبية وكانت وظيفته تدعوه للاحتكاك بصغار التجار والصناع فهاله ما هم فيه من الضيق وصعوبة الوصول الى المال الاّ بالربا الفاحش فخطر له أن ينشئ لهم بالاتفاق مع صديق له يدعى الدكتور برناردى *Bernhardi* صندوقاً للاعانة ومن ثم أخذ هذان المحسنان فى انشاء جمعية تعاون لتدبير المواد الأولى (الخامات) للصناع وقد كان لهذه الجمعية أثر كبير فى اصلاح حال أهل هذه الطبقة فى بلدتى ديلتش وايلنبرج *Eilenburg* وعلى الأخص الاسكافية والنجارين . وفى سنة ١٨٥٠ أنشأ شولز أول بنك من بنوكه ولكنه كان خيرياً اكثر منه تعاونياً ثم أنشأ صديقه برناردى بعد ذلك ببرهة قصيرة بنكاً آخر فى بلدة ايلنبرج فكان اكثر انطباقاً على المبادئ التعاونية من بنك شولز وقد نجح هذا البنك نجاحاً يذكر ففى سنة ١٨٥٢ عدل شولز نظام بنكه على مقتضى القواعد التى ثبت نجاحها فى بنك برناردى ثم أخذ فى نشر دعوته التعاونية فى انحاء البلاد بما اوتيه من قوة الحجة وطلاقة اللسان فقامت تلك البنوك الواحد تلو الآخر فى مدائن المانيا ومنها انتقلت الى معظم البلدان المتمدينة الأخرى سواء بشكلها الأصلى او بعد تعديله على ما يطابق مقتضيات الاحوال المحلية

ولا سبيل الى انكار الفوائد الجليلة التى عادت على طبقة صغار التجار والصناع ومن جرى مجراهم من وراء شركات شولز فى جميع البلاد التى انتشرت فيها اذ امكنتهم من الاقتراض بفوائد لم يكونوا ليؤملوها من قبل وأنمت فيهم ملكة الاقتصاد والتدبير

وقد انتقل التعاون فى الاقتراض من مهده المانيا الى معظم انحاء اوروبا ومنها الى امريكا وآسيا فقام له انصار من كبـار المصلحين وطدوا دعائمه فى جميع البلاد على مبادئ رايفيزن وشولز بعد تعديلها على ما يتفق مع حالة كل قطر فأنشأ لوتساتى بنوك الشعب وولبرج[١] بنوك القرى فى ايطاليا وقام ديران[٢] فى فرنسا و بلنكت[٣] فى ايرلندا بالدعوة الى انشاء مثل تلك البنوك وتولت حكومة الهند قياد النهضة التعاونية فى بلادها فأنشأت بنوك القرى على طريقة رايفيزن كما سيأتى ايضاحه وقس على ذلك سائر البلاد المتمدينة الاخرى

ومما يستوقف النظر ان بنوك التعاون لا تلبث ان تحل فى بلد حتى تتأصل فيه وما ذلك الّا لأن مبدأ التعاون لا تناقض بينه و بين النظام الاقتصادى لاى شعب او اقليم اما القواعد التفصيلية التى توضع لانفاذ ذلك المبدأ فيسهل تكييفها على مقتضى الحالة النفسية والظروف المعاشية الخاصة بكل امة

اما التعاون الزراعى بشكله الحاضر المعروف فأحدث تطورات الحركة التعاونية عهداً والسبب الأصلى فى نشأته شعور الفلاح بأن موارده الاقتصادية وهو على انفراد أقل من ان تقوم بمطالب حياته الزراعية وان فى الجهد المشترك ما يضمن انماء تلك الموارد الى الحد الأعلى . وهناك اعتبارات فرعية تنطوى تحت هذا السبب الرئيسى سيأتى الكلام عليها فى موضعه

على ان فكرة التعاون الزراعى ليست بينت يومها وانما هى ترجع الى عهد الرومان

---

(١) *Dr. Leone Wollemberg* أنشأ أول بنك قروى في ايطاليا سنة ١٨٨٣

(٢) *Louis Durand* محام فرنساوى نشأ فى مدينة ليون وهو أول من أنشأ فى فرنسا بنوك التعاون القروية على مثال بنوك رايفيزن

(٣) *Sir Horace Plunkett* رئيس جمعية التنظيم الزراعي فى ايرلندا "*The Irish Agricultural Organization Society*" وزعيم حركة التعاون فى تلك البلاد

وقد اخذت تنمو في العصور الوسطى الى ان اصبحت فى النصف الأخير من القرن الماضى أساساً لقيام شركات التعاون الزراعى على نظامها الحاضر فى انحاء أوروبا بعد ثبوت نجاح شركات التعاون فى الاستهلاك وفى الاقتراض

وقد ظهر أثر تلك الفكرة فى فرنسا منذ القدم بتأليف جمعيات من المزارعين ترمي الى زراعة الأرض بطريق الاشتراك والتعاون على الوقاية من الغرق والشرق وتجفيف المستنقعات وتدبير التأمين المشترك الى غير ذلك من الاغراض التعاونية . وكان فى البرتغال منذ سنة ١٥٧٦ جمعيات غرضها تقديم البذور الجيدة للفلاح ثم استردادها منه من محصول السنة التالية

وكان فى المانيا هيئات قروية تستغل الأرض والغابات على طريق الشيوع ولا تزال آثار هذه الهيئات باقية فى بعض انحاء تلك البلاد الى الآن

ومن أقدم شركات التعاون الزراعية بشكلها الحاضر ولعلها اقدمها قاطبة شركة الكرامين التعاونية فى ريل *Rell* على نهر الموزيل *Moselle* بالمانيا التى يرجع تاريخها الى سنة ١٨٥٢ وقد انشئت فى انحاء عديدة من المانيا حوالى سنة ١٨٦٠ شركات تعاونية كثيرة لشراء حاجات الزراعة

ولما انتشرت بنوك رايفيزن التعاونية فى ألمانيا شرعت فى كثير من الأحوال فى استعمال أموالها فى شراء السماد الكيماوى والآلات المتقنة ومواد غذاء الحيوانات التى أحدثها العلم ثم نشأ فى تلك البلاد ما بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧٦ كثير من شركات التعاون لصناعة الزبدة والجبنة ونحوها

وكان انشاء أول معمل تعاونى للزبدة فى الدانيمارك سنة ١٨٨٢ وما وافت سنة ١٩٠٩ حتى بلغ عدد معامل الزبدة التعاونية فى تلك البلاد ١١٥٧ معملاً بينما كان عدد المعامل الغير التعاونية ٣٢٨ والمعامل التعاونية شركات يملك حصصها أرباب البقر لا تمييز بين الواحد منهم والآخر فللكل حقوق وواجبات متساوية مهما اختلفت درجاتهم ولا تكاد تخلو قرية من القرى من شركة تعاونية للزبدة يأتيها معظم ما بالقرية من اللبن ويتراوح عدد البقر الذى تستورد منه المعامل التعاونية اللبن

فى القرية الواحدة ما بين ٤٠٠ و ١٤٠ وقد يبلغ الألفين . فمعامل الزبدة التعاونية فى بلاد الدانيمارك اذاً هى أهم المعامل بلاجدال وهى تستعمل اكثر من أربعة اخماس اللبن الذى تنتجه البلاد وقد أُحصىَ البقر فى الدانيمارك فى سنة ١٩٠٩ فكان ١٢٨٢٠٠٠ منها ١٠٦٠٠٠٠ تورد ألبانها لشركات التعاون — ويوزع الربح على الذين يأتون بالقشدة كل بنسبة قيمة ما جلبه وهى طريقة للتوزيع خصيصة بالتعاون الزراعى . وقد بلغ ما صرف اليهم فى سنة ١٩٠٩ ثمناً للقشدة واللبن اكثر من أحد عشر مليوناً من الجنيهات وتجمع هذه المعامل كلها نقابات تقوم بتصدير الزبدة

وقد نشأت فى الدانيمارك شركات تعاون زراعية أخرى مستقلة عن معامل الزبدة كل الاستقلال فمنها ما تقوم بابتياع العلف والسماد ومنها ما تشتغل بجمع البيض وتصديره وذبح الخنازير وتقديد لحومها وتربية النحل وتحسين نتاج الحيوانات وتصدير الفاكهة حتى لقد تجد الفلاح الواحد مشتركاً فى عشر شركات أو اكثر لكثرة ما بالبلاد من تلك الشركات

وأنشئت فى الدانيمارك سنة ١٨٩٥ أول شركة تعاونية لجمع البيض وتصديره بعد فرزه على اختلاف مراتبه ولم تمض ثمان سنوات على تشكيلها حتى بلغ عدد أعضاء الشركات التى من هذا القبيل ٦٥٠٠٠ عضو وبلغت قيمة البيض المصدر ٢٣٦٠٠٠ جنيه فى السنة

واصطبغت نهضة التعاون الزراعية فى الدانيمارك منذ نشأتها بالصبغة الاقتصادية ولم تقتصر على الشراء والبيع المشترك بل تعدت ذلك بالفعل الى الانتاج المشترك فأحدثت فى تلك البلاد فى ثلاثين سنة انقلاباً خطيراً تناول جميع مرافقها ومكنت صغار الزراع من الانتفاع بأحدث المكتشفات العلمية وحولت كثيراً من الأعمال الزراعية الحقيرة الى موارد ذات شأن وزادت غلة الأرض وحسنت حال الفلاحين المادية وقربت فوق ذلك كله ما بين الغنى والفقير فأصبحت الدانيمارك الآن بفضل التعاون الزراعى أغنى بلاد اوروبا بالنسبة الى عدد السكان ما عدا انجلترا

وانتشرت شركات التعاون الزراعية التى عرفت باسم النقابات الزراعية

Les Syndicats Agricoles فى فرنسا بعد صدور قانون نقابات المهن فى ٢١ مارس سنة ١٨٨٤ فأصبح فى البلاد الفرنساوية ٥٠٥٨ نقابة حسب احصاء سنة ١٩١١ يبلغ عدد اعضائها ٧٧٨١٨٩ عضواً منهم ١٥١٩٤ امرأة(١)

وقد بلغت تلك الشركات شأواً عظيماً فى بقية البلاد المتمدينة كايطاليا والبلجيك وهولندا وفنلندا والمانيا والنمسا والمجر واستراليا وزيلندا الجديدة والولايات المتحدة وكندا وايرلندا وغيرها — وان كانت لا تزال قليلة الانتشار فى انجلترا واسكتلندا — على ان وصف نشأتها فى كل من تلك البلدان على حدتها وكيفية رسوخ قدمها ونجاحها المدهش مما لا يسعه هذا المقام

تناولت تلك الشركات جميع ما يخطر على البال من الأعمال الزراعية والتى لها ارتباط بالزراعة وهناك فضلاً عما تقدم ذكره من الأنواع المختلفة شركات للكرامين واخرى لزارعى حشيشة الدينار والبنجر ومثلها لصنع الخمور والزيوت والكحول وتحضير الفواكه والخضر المجففة وحفظ شرانق دودة الحرير وتحسين نتاج الماشية والخيول والطيور المنزلية والتأمين الزراعى والتأمين على المواشى واحراز مخازن الغلال وشراء الأرض وتقسيمها و بيعها للأعضاء وجمع الفواكه وفرزها بحسب مراتبها ثم تصديرها وتحسين مرتبة البذور والقيام بأعمال الرى المشتركة الى غير ذلك من الأغراض التى تختلف باختلاف الاحتياجات المحلية وسيأتى الكلام تفصيلاً فى بابه على أهم هذه الأنواع

أما النتائج الباهرة التى احرزتها شركات التعاون على اختلاف انواعها فان وصفها يكاد يكون أقرب للخيال منه للحقيقة لولا شهادة العيان وحجة الأرقام. قال وولف(٢) فى وصف أعمال شركات التعاون فى الاستهلاك فى انجلترا « ان فى بلادنا ملايين من الناس معظمهم من العمال قد أقاموا ببضعة الشلنات التى اقتصدها كل منهم من

---

(١) تقويم النقابات الزراعية فى فرنسا سنة ١٩١١ صحيفة ٤٠ *Annuaire des Syndicats Agricoles, 1911*

(٢) أنظر كتاب التعاون فى الزراعة *Cooperation in Agriculture* الطبعة الثانية صحيفة ٥

أجرته اليومية محال تجارية تعد من أكبر بيوت التجارة فى البلاد فأنقصت من سعر البضائع وحسنت نوعها وزادت اصطباغ الأعمال التجارية بصبغة الأمانة ورفعت المستوى العقلى والأدبى والتهذيبى للطبقات الفقيرة والوسطى ودربتها على أساليب الاعمال التجارية »

ونقل وولف عن ليون ساى[1] فى وصف النتائج المادية التى نجمت عن انتشار البنوك القروية و بنوك الشعب فى المانيا وايطاليا قوله « ان العملة الذين لا مأوى لهم أصبح منهم الفلاح المالك والتاجر الراتع فى بحبوحة الرخاء كما ان حركة الزراعة والتجارة والصناعة نشطت من عقال الخمول فى كل مكان ومما يستوقف النظر بنوع خاص نجاح الزراعة الصغيرة (زراعة صغار الفلاحين) فى تلك القرى التى بدت عليها بسطة الرخاء وأحاطت بها الحدائق الزاهرة و بساتين الفاكهة والحقول الخصبة الغنية بخيراتها الوافرة التى انتقلت الى الحياة من العدم حتى فى الأقاليم المشهورة بالجدب كما لو قامت بفعل عصا الساحر . وكل هذه العجائب لم تحدث الا من فضل التعاون »

وقال أحد أعضاء مجلس النواب المجرى[2] عندما زار تلك الأنحاء الحافلة بالخيرات « قد رأيت عالماً جديداً — عالماً قائماً على الأخاء والمحبة الأخوية وتبادل المعونة حيث كل يذود عن جاره ويعينه وحيث موارد الهيئة تضاعف قوة انتاجها مائة ضعف » وجاء فى تقرير لجمعيـة التنظيم الزراعى الايرلندية[3] « قد استطاعت ايرلندا بفضل شركات التعاون أن تقدم الى الأسواق زبدة تنافس أفضل ما يصنع فى غيرها من البلاد وتباع بأثمان رابحة فأصبح الفلاح الايرلندى يجنى من بقره ربحاً عظيماً ولم يكن من قبل يستمد منهُ قوته إلاَّ بالكاد على أن الماشية هى هى لم تتغير وإنما الفضل للعمل المنظم الذى قام على مبدأ التعاون »

---

(١) *Leon Say* من كبار أئمة السياسة والاقتصاد فى فرنسا ولد سنة ١٨٢٦ وتوفى سنة ١٨٩٦ تولى وزارة المالية عدة مرات ورئاسة مجلس الشيوخ وكان عدواً لدوداً للاشتراكية وله مؤلفات عظيمة الشأن فى المسائل المالية والاقتصادية أنظر كتاب بنوك الشعب لوولف *People's Banks* صحائف ٨ و ١١

(٢) *Prefessor Von Dobransky* انظر كتاب بنوك الشعب لوولف صحيفة ١٠

(٣) *The Work of the Irish Agricultural Organisation Society* صحيفة ٥

ومما لا شك فيهِ أن نتائج التعاون لم تقتصر على دائرة المرافق المادية بل تعدتها الى الشؤون الاجتماعية والأدبية فحيثما عظمت حركة التعاون بين القرويين سرت فيهم الروح الديمقراطية وسادت على أذهانهم فكرة العمل على نبذ التقاليد العتيقة والأوهام التى كثيراً ما حدت بالفلاح الى النظر الى جاره بعين الخوف والحذر وقد جمع التعاون ما بين أهل الريف على اختلاف نزعاتهم ومبادئهم السياسية ومنازلهم الاجتماعية فأصبحوا على رغم ذلك الاختلاف يعملون معاً على قاعدة التساوى فى الحقوق والواجبات فى سبيل الوصول الى غاية واحدة وهى ترقية شؤونهم المادية والأدبية والاجتماعية

قال روستان (١) « ان النتائج الأدبية تفوق فى نظرى النتائج المادية على عظم شأنها »

وقال ليون ساى « ان بنوك التعاون لهى أمضى سلاح ضد انتشار الاشتراكية »

وقال قاض بروسى انهُ منذ انشاء بنك التعاون فى دائرة محكمته قلّ الخصام والنزاع بين الأهلين وعلى الأخص فى قضايا الديون

وقال قسيس ألمانى ان بنك التعاون الذى أنشئ فى قريته قد أفاد فى اعلاء المستوى الأدبى لأهل القرية اكثر من كل عظاته وتعاليمه (٢)

وقال قسيس ايطالى « ان أهل القرية قد قلّ تردهم الآن على الخمار وزاد عملهم وارتفعت قيمته ومنذ علموا أن عضوية بنك التعاون لا تباح الا لذوى السيرة الحسنة قد رأينا بعض مدمنى الخمر يتعهدون بألاّ يعودوا لطرق باب الخمارة ويبرون بوعدهم ورأينا الأميين ممن يبلغون خمسين سنة من العمر يتعلمون القراءة والكتابة لكى يوقعوا على طلبات الاقتراض بأنفسهم ورأينا الفقراء الذين يعيشون من مرتبات الاحسان التى تصرف اليهم يسعون لمحو أسمائهم من سجل الصدقات لكى يتمكنوا من الاندماج

---

(١) *Eugène Hubert Rostand* أديب واقتصادى فرنساوى ولد فى سنة ١٨٤٣ له مؤلفات كثيرة في الامور المالية منها كتاب في اصلاح صناديق التوفير الفرنساوية وقد أنشأ بنكا للشعب وعين عضواً في اكاديمية العلوم الأدبية والاقتصادية سنة ١٨٩٨ وهو أبو الكاتب الروائى الشهير ادمون روستان . انظر كتاب بنوك الشعب لوولف صحيفة ١١

(٢) انظر كتاب بنوك الشعب لوولف صحيفة ١١

فى عضوية البنك القروى فيعيشوا من كدهم بفضل رأس المال الصغير الذى يقترضونه من البنك . وقد أقرض البنك بعض الفقراء ممن كانوا من قبل لا يكادون يقومون بأود أنفسهم فاشتروا بقراً يؤدى الواحد منهم ثمنها مما يحصله من لبنها[١]

وقال وولف « ان فى التعاون لقوة تهذيبية عظيمة الشأن تحمل الناس على التفكير والدرس وتقدير عواقب الأمور وتدربهم على أساليب الأعمال التجارية . وهو يسرع فى خطى المدنية وفى نمو السكان ويوقظ الهمم ويحرك ساكن الافهام . ومما يستحق الذكر فى الدلالة على ذلك ما ترتب من النتائج على قيام نهضة التعاون فى الهند فى بضع سنوات حيث يلجّ الذين يمارسون التعاون هناك فى طلب المزيد من التهذيب والتعليم الفنى وفى الحصول على أجود البذور وأصلح الآلات والأسمدة والوقوف على أتقن أساليب الزراعة والواقع يؤيد مثل هذه النتيجة فى سائر البلاد فقد كانت الزراعة فى المانيا منذ خمسين سنة وراء زراعة بلادنا (انجلترا) بشوط كبير وكانوا يشيرون هناك بوجوب اتباع خطى الزراعة الانجليزية والاسكتلندية أما الآن فقد سارت سيراً حثيثاً فى سبيل الرقى . . . . . ولم يؤد الى هذه النتيجة الاّ التعاون حيث حمل الناس على التفكير وسخر الخبرة الفنية والعلمية لخدمة أصغر الفلاحين وخلق الأسباب المهيئة للانتفاع بهذه المزايا »[٢]

ونقلت الجورنال « *Le Jornal* » فى عددها الصادر فى أول يوليه سنة ١٩١٦ عن كتاب « الأزمة الزراعية والدواء التعاونى » لمسيو جورج ديبون[٣] فى وصف التقدم الاقتصادى الذى أدركته الدانيمارك ما يأتى : — ان الفوضى الزراعية وفقدان التنظيم الاقتصادى أوشكا أن يوردا الدانيمارك موارد الخراب الى أن حل النظام فيها محل الفوضى فأنقذها وأبدل عسرها باليسر والرخاء وذلك ان أعمال التسليف الزراعية والانتاج والاستهلاك قامت على الطريقة التعاونية فى معظم أنحاء البلاد فأصبحت شركات التعاون هى التى تتولى أمر صناعة الألبان والزبدة ونحو نصف المجازر ومعظم

---

(١) أنظر كتاب بنوك الشعب لوولف صحيفة ١١

(٢) انظر كتاب التعاون في الزراعة لوولف صحيفة ٣

(٣) *La crise agricole et le remède cooperatif par Georges Desbons.*

تجارة تصدير البيض واللحوم وتربية الخيول والمواشي والخنازير كما أن عدداً عظيماً من المخابز ومعامل البيرة ومعامل تقطير الكحول تديرها شركات التعاون وبذلك لم تبق ثمة حاجة للوسطاء وقلت نفقات الادارة الى الحد الأدنى وأصبح المنتج يجنى قيمة حاصلاته الحقيقية كاملة أو تكاد من ثمن يستولى عليه وربح يتناوله عن حصته فى رأس المال ومكافأة يتقاضاها بنسبة مبيعاته

والزبدة المصنوعة بالطرق الآلية فى المصانع التعاونية مع استيفاء الشروط الصحية تحت اشراف الثقات من أهل الفن تفضل الزبدة القديمة كثيراً فالرطل منها لا يقتضى لصنعه اكثر من ثلاثة عشر كيلو من اللبن بدلاً من ستة عشر

وتبيع الدانيمارك من الزبدة فى الأسواق الانجليزية ستة أمثال ما تبيعه فرنسا بل انك لتجد الزبدة الدانيماركية تباع فى أسواق باريز نفسها . والشركات التعاونية تتفقد عن كثب حالة كل حيوان وتراقب طرق التوالد والانتخاب وتقترح ما تراه من وسائل الاصلاح فى هذا السبيل وتمنع الغش أو تجازى مرتكبيه فالنتيجة ربح الفلاح وتوفر الضمانات اللازمة للمشترى

ويستعمل لبن « الفرز » لتغذية الخنازير بعد خلطه بقليل من الدقيق

وهناك أربعون مجزراً تعاونياً تبيع مليون ونصف من الحيوانات وتوزع على اعضائها نصف مليون من الجنيهات ربحاً فضلاً عن ثمن اللحوم وتصدر ١٥٠٠٠٠٠ طن من دهن الخنزير وعشرة آلاف طن من اللحم البقرى فى العربات المجهزة خصيصاً لحفظ البرودة وخمسة عشر ألف طن من الكرش

وأما تجارة البيض فان شركات التعاون لا تتولى الا نحو ربعها ولكن منافسة تلك الشركات قد أقامت هذه التجارة على قواعد منتظمة فأصبح التوقيع على كل بيضة بامضاء الفلاح مع التاريخ وعلامة الفحص والمراجعة فى المخزن العمومي من الأمور الضرورية فضلاً عن ان انتخاب الدجاج وطرق التوالد المتبعة تؤدى الى انتاج البيض الذى يتفق مع طلب المستهلك من حيث الوزن والشكل وتلك ميزة لمنافسينا الدانيماركيين علينا نحن معاشر الفرنسويين نشعر بها كلما قارنا أساليبنا التجارية بأساليبهم .

فان المنتج الفرنساوى زارعاً كان او صانعاً لا يريد الاّ أن يرغم المستهلك على قبول ذوقه و بضاعته على علاتها وأما الدانيماركيون فانهم يكيفون حاصلاتهم على مقتضى ذوق المشترى فلا عجب اذن ان كان دجاج الدانيمارك يبيض البيض الذى يشتهيه الانجليز

والنتيجة الطبيعية لما تقدم اننا بعد ان كنا نبيع انجلترا من البيض ما قيمته ثلاثون مليوناً من الفرنكات أصبحنا نبيعها ما لا تزيد قيمته على تسعة ملايين فى حين ان الدانيمارك تبيع فى أسواق انجلترا من البيض ما قيمته أربعون مليوناً وهكذا قد حلت محلنا . ومن البديهى ان السياسة والأخاء فى السلاح شىء والتجارة شىء آخر . فالانجليزى يطلب بيضاً كبيراً ذا قشرة سمراء اللون ويشتريه حيث يجده

والنظام التعاونى يسهل القيام بالأعمال التى لا يستطيع القيام بها عادة الاّ كبار الماليين فلا تتسنى للفلاح الصغير الاّ بفضل العمل المنظم على طريقة التعاون كغرس الغابات وانشاء المصارف والترع واصلاح الأراضى واستعمال الآلات الزراعية وانتخاب الحيوانات بطريقة التوالد العلمى وفحص الحبوب والسماد وموءونة المواشى فحصاً علمياً دقيقاً قبل شرائها

ولكى يتمكن الفلاح من احسان القيام بعمله لا بد له من القراءة والمناقشة وقبول المستحدثات العلمية واكتساب صفات الادارة الحسنة واستقاء الأخبار الزراعية الصحيحة من مصادرها والنظر الى الأمور بمنظار بعيد المدى والتكافل مع جيرانه والغيرة على شرف الفلاحة وقطع شأفة الغش والتحايل .وكل ذلك لا يجىء على أتمه الاّ من طريق التعاون

وللربح الذى يجنيه المتعاونون من الاستغناء عن الوسطاء أثر ذو شأن فانه يعود بالرخاء على القرى فترتفع أجور العمال ولا يفكر أحد فى هجر بلده ولا عجب اذن ان قد نقصت المهاجرة من الدانيمارك الى امريكا الى نصف ما كانت عليه قبل انتشار شركات التعاون

وقد نمت الزراعة الصغيرة هناك فأقبل صغار الفلاحين على شراء الأراضى التى

يفلحونها وأصبح العملة من ذوى الأملاك وزادت الأمانة فى المعاملات التجارية لأن شركات التعاون تطرد مرتكبى الغش وتفحص نوع البضائع التى يبيعها اعضاؤها والتى يشترونها فحصاً دقيقاً

وقد أدرك فلاحو الدانيمارك هذا النجاح العظيم بلا تداخل سياسى ولا معونة مالية من قبل الحكومة فأنقذوا الزراعة بتنظيم مجهوداتهم على المبادئ التعاونية . اه

وقال مسيو ريبيه[1] فى وصف عمل النقابات الزراعية فى فرنسا : لا يستطيع أحد مهما اختلفت وجوه النظر ان ينكر المهمة العظيمة التى قامت بها النقابات الزراعية فى سبيل انماء ثروة البلاد الفرنساوية كما لا يستطيع احد ان يشك فى ان هذه النقابات التى سماها ولدك روسو بروح القرويين قد أضاءت الريف بنور ساطع من التضامن بعد ان كان ظلام الانانية مخيماً عليه

وقالت لجنة التعاون فى الهند[2] ان الحكومة الهندية ما التجأت الى التعاون كأفضل حل المسألة الزراعية الاَّ بعد ان أفرغت جعبة الاصلاحات الأخرى فانها أنشأت نظاماً للتسليف من قبل الحكومة وعممت نشر صناديق التوفير البريدية ووضعت القوانين الخاصة لحماية مصلحة مستأجرى الأراضى الزراعية ولتسوية الديون وللقضاء على الربا . نعم ان بعض هذه التدابير قد أتت بكثير من الفائدة لأهل الزراعة ولكن لا مناص من الحكم على نتيجتها فى مجموعها بالنقص . كما ان المجهودات التى بذلت فى سبيل نشر الاصلاح الصحى والتعليم ما بين طبقات الفقراء لم تقترن بكل ما كان يرجى لها من النجاح ولذلك رأت الحكومة الهندية ان توجه عنايتها شطر التعاون مع الاحتفاظ بمشروعات الاصلاح المتقدم ذكرها

---

(١) *Joseph Ribet* الذى كان مفتشاً عاماً لوزارة الزراعة بفرنسا — انظر مجلة مصر الحديثة صحيفة ٢٣٥ من السنة الثالثة

(٢) هى لجنة ألفتها حكومة الهند من بعض كبار الماليين والتجار وأهل القانون ما بين موظفين وغير موظفين فى أواخر سنة ١٩١٤ لفحص الحالة التى وصلت اليها شركات التعاون فى الهند واقتراح وجوه الاصلاح التى ترى لزومها وقد وضعت تلك اللجنة تقريراً جليل الشأن طبع فى سنة ١٩١٥ — أنظر صحيفة ٥ من ذلك التقرير

وقال الكونت روكيني فى كتابه « النقابات الزراعية »[1] ان عمل النقابات الزراعية ديمقراطى محض موجه لفائدة الضعفاء وهو مشبع بفكرة تبادل المنفعة والتضامن الاجتماعى ولذلك يفرض على كل حكومة رشيدة أن ترعاه بعين العطف والرعاية

ولسائل أن يقول ما هو ذلك العمل :

ان النقابات الزراعية قد بدلت أساليب الزراعة وأرشدت أقل الفلاحين شأناً الى المكتشفات العلمية وحلت مشكلة تقريب وسائل الاستغلال الكبرى الى متناول أعضائها فزادت غلة الأرض وجعلت طرق استغلالها أقل عناء من ذى قبل وغيرت عوائد الفلاحين وطبائعهم تغييراً عظيماً فبعد ان كانوا مستسلمين للمقادير أصبحوا الآن وهم يهتمون بالشؤون العامة التى تمس مهنتهم وكشفت القناع لسكان الريف عن موارد التعاون التى لا حدَّ لها وبينت لهم الحقوق والواجبات المترتبة على تضامن أهل المهنة الواحدة وقربت ما بين طبقات القرويين المختلفة ليعملوا معاً فى سبيل مصلحتهم المشتركة وينتفع الضعفاء منهم بمشورة الأقوياء وحسن أحدوثتهم المالية وتزول الفوارق الاجتماعية بسبب تبادل المعونة

وقد نشأ عن كل ذلك حالة اجتماعية أكثر انتظاماً من ذى قبل وقام العمل الزراعى على دعائم نظام جديد يفى بمطالب القرويين ويكفل تحقيق أقصى أمانيهم وبدت آثار هذا النظام فى ان أهل الريف أصبحوا يشعرون بما لهم من القوة فقل التجاؤهم الى طلب تداخل الحكومة فى كل أمر من أمورهم كما كانوا يفعلون من قبل وأدركوا قوة الاجتماع السحرية وعلموا انها أنجع القوى فعلاً فى سبيل نيل الاصلاحات التى يتطلبونها وتلك نتيجة غاية فى الأهمية كما لا يخفى لأن المنشآت القائمة على الهمة الفردية هى التى تقوى دون سواها على حل مشاكل العمال حلا مرضياً وهى تنمو نموًّا طبيعياً لارتكازها على مبدأ الحكم الذاتى فضلاً عن أن الهيئات التى تديرها هى على جانب من المرونة يسمح بتكيّفها على مقتضى الحاجة

---

(١) *Les Syndicats Agricoles et leur oeuvre par le Comte de Rocquigny*
وهو خير كتاب ظهر فى اللغة الفرنساوية عن شركات التعاون الزراعية — أنظر صحيفة ٣٩٦ وما بعدها

ومن المحقق ان الحكومة مع ما لها من حول وطول لم تكن لتستطيع أن تبلغ فى سبيل ترقية شؤون القرويين الغاية التى بلغتها النقابات من تقدم الزراعة وتغيير أساليبها واصلاح حال صغار الزراع

ومن أفضل التعاليم التى نشرتها النقابات الزراعية تدريب الفلاحين على الاعتماد على أنفسهم وتعويدهم على التفاهم الحسن فيما بينهم والتعويل على مجهوداتهم المشتركة دون الالتجاء الى الحكومة الاّ فيما يفرض عليها من حماية مصلحتهم وتعضيدهم

ولا يقتصر العمل الاجتماعى الذى تؤديه النقابات على الاحتفاظ بالأملاك الصغيرة وزيادة انتشارها وتثبيت دعائم العائلة القروية وتعلق الفلاحين بالأرض تبعاً لازدياد رفاهيتهم ورخائهم ومكافحة الشقاء واغاثة المرضى والتكفل بمعاش العجزة واحلال السلام والصفاء بين مالكى الأرض والعمال الذين يفلحونها — وكل ذلك ليس بالعمل الهين فى سبيل حل المشاكل الاجتماعية الماسة بشؤون أهل الزراعة — ولكنها هيأت لطبقات القرويين نظاماً كان ينقصهم وأنارت بصائرهم فأدركوا معنى جديداً سامياً لحقوقهم وواجباتهم وحررتهم من رق القيود التى لبثوا يرسفون فيها عصوراً طوالاً بسبب الجهل والضعف والعزلة وسيكون لدخول العمال القرويين فى ميدان تقدم الحضارة العامة أثر خطير فى المستقبل

وكلما استقام نظام عالم الزراعة عظم تأثره بتعاليم التضامن الانسانى العظيمة الشأن التى تسرى سراعاً يوماً فيوماً فى روح الجمعية الحديثة وأصبح للفلاح مَثَل أعلى يضىء ظلام حياته

هذا الانقلاب الخطير الحافل بالثمرات لم يسبق له نظير على الاطلاق وهو لا ينسب الاّ للنقابات الزراعيـــة . . . . قال المسيو جورج مورين *Georges Maurin* فى رسالته عن « النقابات الزراعية والأزمة الاجتماعية » *Les Syndicats Agricoles et la Crise Sociale* وهو من اكثر الناس معرفة بالنقابات وأشدهم اخلاصاً فى العمل لها : والذى يلفت النظر بنوع خاص تلك النهضة العقلية العظيمة التى أحدثتها النقابات بين طبقات القرويين فساقت الى أذهانهم الساذجة نظريات جديدة بالنسبة

لهم وهى ما للقواعد الاقتصادية من السلطان على أسواق الحاصلات وما لمبدأ تبادل المنفعة والتضامن الذى يوجد بين أهل المهنة الواحدة من القوة . وكانت كمن أزاح قناعاً عن عيون هؤلاء الفلاحين وهم فى عزلة اكواخهم فاتسع لنظرهم مدى لم يكونوا ليحلموا به من قبل . تلك هى روح شعب الريف الفرنساوى وعقليته المقبلة التى بذغت شمسها فى سماء النقابات الزراعية

وقال الاقتصادى بودريار *Baudrillart* الذى رأى النقابات فى حداثة عهدها إن انشاءها كان أعظم الأعمال الاقتصادية شأناً فى العصر الحاضر وقال الكونت شامبرون *Comte de Chambrun* الذى رآها قوية شديدة الساعد وكان له أثر ذو شأن فى توجيهها فى طريق التقدم الصحيح انها أفضل آيات علم الاجتماع . اه

وانه ليصح أن يقال بوجه الاجمال ان التعاون قد أصبح عاملاً عظيم الشأن فى انماء موارد الصناعة والتجارة والزراعة واعلاء المنزلة الاجتماعية والعقلية والأدبية للطبقات التى انتشر بين ظهرانيها